مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (36) العدد (6)2014
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (36) No. (6) 2014

صورة الإنسان المسؤول (الحاكم) في خطب نهج البلاغة

الدكتورة وهران حبيب*
منتجب عمران**

(تاريخ الإيداع 25 / 8 / 2014. قبل للنشر في 26 / 11 / 2014)

□ ملخّص □

يدرس البحث صورة الإنسان المسؤول في خطب نهج البلاغة ، فيبدأ بعرض آراء بعض الفلاسفة وعلماء الاجتماع في الحاكم المسؤول ، وتقديمهم جملة من العوامل المؤثّرة في سلوكه ، وتوضيح بعض الظروف التي تجعل منه مسؤولاً . يركّز البحث على الإنسان المسؤولوالواجبات الملقاة على عاتقه إزاء نفسه ورعيّته ومسؤولياته أمام الله تعالى .كما يقدّم البحث دراسةً فنيّةً جماليّةًلأنموذجٍمن نماذج خطب النهج التي تتحدّث عن مسؤوليات الحاكم ، فيُظهر البحث الجوانب الجماليّة فيها وأثر الصور الفنيّة واللغة والإيقاع الموسيقيّ في جلاء صورة المسؤول وتذكيره بواجباته .

الكلمات المفتاحيّة: المسؤول، الحاكم، الإنسان، الواجبات، الرعيّة، الصورة، الإيقاع ...

*مدرّسة متفرّغة – قسم اللغة العربية – كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة تشرين – اللاذقية – سورية .
**طالب دراسات عليا (ماجستير) – قسم اللغة العربية – كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة تشرين – اللاذقية – سورية .

مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (36) العدد (6)2014
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (36) No. (6) 2014

The Image of man in charge (the ruler) in speeches of Nahj ulBalaghah

Dr. Wahran Habib*
Montajab Omran**

(Received 25 / 8 / 2014. Accepted 26 / 11 / 2014)

□ ABSTRACT □

The Research examines the image of man in charge in the Speeches of Nahj ulBalaghah. It starts with presenting the views of some philosophers and sociologists about man in charge (the ruler), introducing number of factors affecting his behavior. In addition, it clarifies some of the circumstances that make him responsible. The Research, also, focuses on the man in charge with duties entrusted to him regarding himself, his flock and his responsibilities before God. It also offers an artistic and aesthetic study of one of the Speeches models that talks about the responsibilities of the ruler. The Research shows the aesthetic aspects and the impact of art images, language, rhythm on showing the official image of man in charge and reminding him of his duties.

Key words: man in charge , ruler , rights , duties , flock .

***Assistant Professor , Arabic Department , Faculty of Arts and Humanities, Tishreen University, Lattakia, Syria .**
****Postgraduate Student, Arabic Department, Faculty of Arts and Humanities, Tishreen University, Lattakia, Syria.**

مقدّمة:

تنشأ المسؤوليّة مع الإنسان ، وتتطوّر مع تقدّمه في العمر ، وتغيّر مكانته الاجتماعيّة أو السياسيّة . فإمّا أن يجد نفسه مجبراً أمام مسؤوليّاتٍ شتّى ، وإمّا أن يسعى للاضطلاعِ بها ابتغاء منصبٍ أو جاهٍ أو غايةٍ ما . وقد حفلت خطب (نهج البلاغة) بالحديث عن مسؤوليات الحاكم المسؤول وواجباته المختلفة ، وبيّنت خطرها وعظمة أدائها على أكمل وجه ، إذ تشكّل حلقةً متسلسلةً تنشد بناء مجتمع العدالة الإخاءِ والمحبّةِ والتسامحِ ، والقضاءِ على الظلموالأثرةِ ونوازعِ الشرِّ والحقدِ .

أهميّة البحث وأهدافه :

تكمن أهميّة البحثِ في تناوله إحدى قضايا نهج البلاغةِ التيتظهر فِكر العصر الإسلاميّ عموماً والإمام عليّ على وجه الخصوص، ونظرة كلّ منهما إلى مفهوم المسؤوليّة. كما يبيّن البحثُ دور الوعظ والإرشاد عند الإمام عليّ بوصفه خليفةً للمسلمين. ثمّ دور الحاكم، ومسؤولياته المنوطةِ به تجاه رعيّته. فضلاً عن إبراز الجوانب الفنيّة والجماليّة التي تحملها عبارات النهجِ وخطبه، ودورها في تجلية المعاني والشعور.

منهجيّة البحث :

يعتمد البحث في دراسته على المنهج الوصفيّ ، ويقدّم صورة المسؤول كما وردت في نهج البلاغة.و يدرس بعض النصوص دراسةً فنيّةً جماليةً تُظهر الذائقةِ الفنيّة والثقافيّة والمعرفيّة ، فيقف على جماليات التركيب اللغويّ مظهراً طاقاتها الإيحائيّة المكثّفة ، ويحاول التعمّق في تحليل الصور ليكشف قدرة المبدع في المزاوجة بين الموروث والمبتكر ، ويدرس المنهجُ الإيقاعَ الموسيقيَّ من خلال دراسةٍ صوتيّةٍ تظهر تآلف الحروف وتنافرها ضمن الكلمةِ الواحدةِ ، ومدى انسجامها أو تنافرها مع مثيلاتها من الكلمات ضمن سياقٍ موحٍ تؤدّي فيه ألوان البديع دورها الإيقاعيّ المعبّر .

الإنسان – المسؤول في الفلسفة وعلم الاجتماع:

استأثر الإنسان باهتمام العلماء والفلاسفة والمفكرين وغيرهم ، فسعوا إلى الوصول لفهم ماهية هذاالكائن والتغلب على اللغز الذي يكتنفهُ . وقد نحا مصطلح "الإنسان" منحىً اجتماعياً عند بعض الفلاسفة يُنظر فيه إلى الإنسان على أساس "حسنِ النيةِ تجاه الآخرين ، واحترامهم ، والتعاطف معهم ، والثقة بهم ، والسماحة ، ونكران الذات ....[و] التواضع والأمانة والنزاهة "[1] وهذا يؤكد النظر إلى الإنسان بوصفهِ سلوكاً اجتماعيّاً وقيماً أخلاقيّة واستبعاد النظر إليه بوصفه جسماً مادياً .

ولم يكتفِ علماء الاجتماع بتوصيف المجتمع البشري بل أسهموا في إنارة طريقه وصونه من الانحلال من خلال مؤلفاتهم؛ فذهب (أفلاطون) ، على سبيل المثال ، إلى وضع نظام متكامل لبناء الدولة ينشد من خلاله مدينته الفاضلة[2].

---

[1]معجم علم الأخلاق ، ترجمة توفيق سلوم ، دار التقدم –1984– طبعة الاتحاد السوفياتي ،صـ96

[2]علم النفس الاجتماعي ،دراسات عربية وعالمية ،د. محمود السيد أبو النيل ،سلسلة علم النفس ،دار النهضة العربية ،بيروت–لبنان ،الجزء الأول ،الطبعة الرابعة ،1985م ،صـ87

إنّ وجود قاعدة في المجتمع يلزم بالضرورة وجود هرم يوجه القاعدة ويمثلها ، وهي التي تدعمه وترفده بكل مقومات النجاح . يتمثل هذا الهرم في القيادة أو الزعيم أيّا كانت صفته سواء زعيم عشيرة أم قبيلة أم رئيس دولة ، وهو مالم يغفله علم الاجتماع شأنه في ذلك شأن القضايا الأخرى .

وليس الزعيم أو القائد أو المسؤول إنساناً عاديّاً ، إذ لو كان كذلك لأمكن أن يكون كل فرد في المجتمع زعيماً . يجب أن يتمتع القائد بصفات جسمية وعقلية ونفسية استثنائية يندر وجودها في غيره . لقد وصفه أحدهم بأنه "نصف إله"[3] ووصفه آخر بأنه "الإله الأرضي"[4] ، ولاسيّما أنّه يمثل الدولة المسؤولة عن تأمين حاجيات الأفراد وسلامتهم ووضعهم في سفينة النجاة التي تقلهم إلى برّ الأمان.

فالقائد قدوة لشعبه ، وهو مَثلهم الأعلى الذي يتخذونه مثالاً لهم ، فلا يمكنه بلوغ ذلك إلابالجهد المُضني والكدّ وتحمل أعباء المجتمع بجديّة واقتدار والسير به في الوجهة الصحيحة .

ينبغي للزعيم – كي يكون كذلك – أن يكسب ثقة أبناء المجتمع وينال حبّ أبنائه ودعمهم له ، ولا يتم ذلك إلا بما يحمله من رجاحة عقل وقوة بدنية يتفرّد بها عن غيره وخواصّ لا يشبهه فيها غيره ؛إذ إنّ للهيئة الجسمانية صفاتٍ خاصةً يُفترض وجودها في الزعيم . والإحاطة بكافة القضايا والثقة الشديدة بالنفس وقوة التأثير ، والبعد عن الهوى والتأثّر ،وغيرها من الصفات العامة التي ينبغي أن تتوفر في الزعيم كي يكسب حب الشعب له والتفاعل معه ،إذ إنّ "الجماعة تمد الزعيم بالنفوذ والقوة والسلطان ، وهو يمدها بالحماسة " .[5]

الإنسان المسؤول (الحاكم)في نهج البلاغة :

يجمل الإمام عليّ صفات الإنسان المسؤول (الحاكم) في كتابه الذي أرسله إلى عامله على مصرَ الأشتر النخعيّ ، ويركّز على الشروط الواجب توفرها في شخصيّة الحاكم ، والواجبات الملقاة على عاتقه إزاء نفسه وإزاء الآخرين ، بدءاً من وزرائه وأعوانه وبطانته الخاصّة ، وانتهاءً بمسؤوليّاته تجاه الرعيّة .

مسؤولية الحاكم :

أ. يرى الإمام عليّ أنّ الحُكم مسؤوليّة لإقامة الحقّ بين الناس ، وابتلاء يُمتحن من خلاله الحاكم ، وليس امتيازاً يحوزه صاحبه . فهو يذكّر الأشتر في عهده له بذلك فيقول :"وقد استكفاك أمرهم (أمر الناس) وابتلاك بهم"[6]، فالمهام التي يضطلع بها الحاكم كثيرةٌ ، ونجد في كتب عليّ إلى عمّاله على الأمصار دروساً قياديّةً ولا سيّما عهده إلى واليه على مصرَ الأشتر . ويرسم الإمام عليّ منهج بناء الدولة الفاضلة القويّة مبيّناً ما ينبغي على الحاكم أن يفعله تجاه نفسه أوّلاً، وتجاه الشعب ثانياً على اختلاف شرائح المجتمع : ولعلّ هذا العهد يختصر جميع كتبه إلى عمّاله . فهو يبدأ بالحاكم ، ويبيّن له مهمّته في القيادة ، وما ينبغي عليه ، إذ يقول :"من عبد الله عليٌّ أميرِ المؤمنين إلى واليه على مصرَ حين ولاه جباية خراجها ، وجهاد عدوّها واستصلاح أهلها وعمارة بلادها"[7]، ويظهر جليّاً من مقدّمة العهد أنّ مهمة الحاكم في قيادة بلاده وشعبه تقوم على أربع دعائمَ : الدعامة الاقتصادية (جباية خراجها) ، والدعامة العسكريّة (جهاد عدوّها) ، والدعامة الاجتماعيّة (استصلاح أهلها) ، والدعامة الحضاريّة والعمرانيّة (عمارة بلادها) . ونجد في

---

[3]علم الاجتماع ،حياة الهيئة الاجتماعية وتطورها ، نقولا الحداد ،الجزء الأول ،صـ214

[4]علم النفس الاجتماعي ، د.محمود السيد أبو النيل ،89

[5]علم الاجتماع ،نقولا الحداد ،ج1 ،213 –218

[6]نهج البلاغة 17\26

[7]المصدرالسابق 17\24

النهج خطباً أُخَر تتحدث عن مسؤوليات الحاكم ، لكنّها تنضوي جميعها تحت المعاني الآنفة الذكر من تكريسٍ للفضيلة وحراستها[8]، أو إزالةٍ لأسباب الحقد والثأر بين الناس[9]، إلى غيرها مما يتوجّب على الحاكم أن يفعله من مهام وأعباءٍ .

ب.وأن يكون متواصلاً مع شعبه قريباً منهم فالاحتجاب يثير ظنونهم وشكوكهم ، والتواصل يعيد إليهم ثقتهم بالحاكم . يقول ناصحاً أحد ولاته :"فلا تطوّلنّ احتجابك عن رعيّتك فإنّ احتجاب الولاة عن الرّعيّة شُعبةٌ من الضيق ، وقلّة علمٍ بالأمور ، والاحتجاب منهم يقطع عنهم علم ما احتجبوا دونه ، فيصغرُ عندهم الكبير ويعظم الصّغير ويقبح الحسن ، ويحسن القبيح ، ويشاب الحقّ بالباطل"[10]. ولذلك فإنّ مصارحة الحاكم الرّعيّة حقٌّ لهم عليه ، إلا فيما وجب كتمانه حرصاً على مصالح الأمة ، يقول عليّ :"ألا وإنّ لكم عندي ألا احتجز دونكم سرّاً إلا في حربٍ ولا أطوي دونكم أمراً إلا في حكمٍ"[11].ولم يستثنِ عليٌّ غيرَ هذين الأمرين في مكاشفة الشّعب برامجه وخططه .

ج. ينبّه الإمام عليٌّ بشدة إلى تجنب سفك الحاكم الدماء ،فهو أسرع لغضب الله تعالى وعقوبته ،وانهيار نعيمه ،كما أنّ قيام الحكم على سفك الدماء يضعفه ويهدده بالزوال ،ولا مغفرة في القتل المتعمد . أمّا إذ حصل القتل عن طريق الخطأ ،فإنّ على الحاكم أن يسارع إلى أداء حقّ أولياء المقتول[12] ، ويحضّ عمّاله – مسؤوليه على الإكثار من لقاء العلماء والحكماء والإفادة من علمهم وحكمتهم بما يعود على البلاد والعباد بالخير والمنفعة[13]، ويدعوهم إلى معاشرة أهل الورع والصدق ممن يرشدون إلى فعل الصواب ولا يخشون قول الحقّ في الحكّام[14]، لكنّه يحذرهم من قبول الإطراء لأنه يوقع صاحبه في العُجب والفخر ،وهو ما نهى عنه[15].

شخصيّة الحاكم :

يضع عليّ شروطاً يجب توافرها في الحاكم كي يكون أهلاً لحكم الرّعيّة وتسيير شؤونها ، ومن هذه الشروط :

1. **التحلّي** بالحكمة والأخلاق الفاضلة التي تبعث في نفوس أبناء الأمّة الرضوالطمأنينة ؛ إذ يقول :"وإنّما يُستدلّ على الصالحين بما يجري الله لهم على ألسن عباده ، فليكن أحبُّ الذخائر إليك ذخيرةَ العمل الصالح"[16].

2. **العدل** في حكم الرعيّة ، والتحرّز من ظلمها لأنّ الله تعالى يسأل عباده عن كلّ صغيرةٍ وكبيرةٍ قاموا بها ، كما أنّ اتّباع الهوى يؤدّي إلى الظلم والبعد عن الإنصاف[17].يقول :"أمّا بعدُ فإنَّ الواليَ إذا اختلف هواه منعه ذلك كثيراً من العدل ، فليكن أمر الناس عندك في الحقّ سواءً ، فإنّه ليس في الجور عوضٌ من العدل ، واجتنب ما تنكر أمثاله"[18].ويحذّره من المساواةُ بين المحسن والمسيء لما ينتج عنه من سوء العاقبة ، وضربِ النسيج الاجتماعيّ القائم واستجلابِ الغضب الإلهيّ ، وتعجيلِ العقوبةِ والجزاءِ ، وسرعةِ زوالِ المُلكِ[19]؛ إذ يقول :"ولا يكوننّ المحسن والمسيء

---

[8] المصدرالسابق 20\234

[9] المصدرالسابق 17\28

[10] المصدرالسابق 17\69-70

[11] المصدرالسابق 17\14

[12] المصدر السابق 17 /85

[13] نهج البلاغة 17\36

[14] المصدرالسابق 17\33

[15] المصدرالسابق 17\35

[16] المصدرالسابق 17\24

[17] المصدرالسابق 17\111

[18] المصدر السابق 17\111 , و17\27

[19] المصدر السابق 17\27

عندك بمنزلةٍ سواء فإنّ في ذلك تزهيداً لأهل الإحسان في الإحسان وتدريباً لأهل الإساءة ، والزم كلاً منهم ما لزم نفسه"[20].

3. **الاستماع** إلى آراء الرّعيّة ، والأخذ بمشورتهم ، وأن يعدّ نفسه واحداً منهم، ولا تقتصر النصيحة على الشعب فحسب بل تتعدّاه إلى المجال العسكري ، فيركّز الإمام عليّ على خبرة الناصح وصدقه ووعيه ، فيخاطب أحد عمّاله قائلاً :"فولِّ من جنودك أنصحهم في نفسك لله ولرسوله ولإمامك"[21].

4. **الرفق** بالرعيّة والحنو عليهم ، وتحسّس آلامهم والسعي في إصلاح شأنهم ، والاهتمام بشؤون العامّة ، وأن تكون عنايته بعامة الناس لا ببطانته لأنّ رضى العامة يمدّ الحاكم بأسباب البقاء والقوّة ، يقول الإمام عليّ :"... وليكن أحبّ الأمور إليك أوسطها في الحقّ ، وأعمّها في العدل وأجمعها لرضا الرعيّة ، فإنّ سخط العامّة يجحف برضا الخاصّة ، وإنّ سخط الخاصّة يغتفر مع رضى العامّة ، ... والعدّة للأعداء العامّةُ من الأمّة ، فليكن صغوك لهم وميلُك معهم"[22].

5. **الوفاء** بالوعد دون منٍّ ، فالحاكم مؤتَمَنٌ على مصالح البلاد ، ومكلَّفٌ بتدبير شؤونها، ليكسب رضى الله عزّ وجلّ ، ويتجنّب سخط الرعيّة وكراهيتهم[23]. يقول لأحد عمّاله:"إيّاك والمنّ على رعيّتك بإحسانك، أو التزيّد فيما كان من فعلك ، أو أن تعدهم، فتتبعَ موعدك بخلفك ، فإنَّ المنَّ يبطل الإحسان ، والتزيّد يذهب بنور الحقّ، والخلف يوجب المقت عند الله والناس، قال الله – سبحانه وتعالى– :﴿كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُوْلُوا مَاْ لا تَفْعَلُوْنَ﴾"[24][الصّفّ – 3].

6. **الحرص** على حقن الدماء ، إذ ينبه الإمام عليٌّ بشدة على تجنب سفك الدماء ،فهو أسرع لغضب الله تعالى وعقوبته ، وانهيار نعيمه ، كما أنّ قيام الحكم على سفك الدماء يضعفه ويهدده بالزوال ، ولا مغفرة في القتل المتعمد ، أمّا إذا حصل القتل عن طريق الخطأ ، فإنّ على الحاكم أن يسارع إلى أداء حقّ أولياء المقتول ، يقول محذّراً أحد عمّاله :" إيّاك والدماء ، وسفكها بغير حلّها ، فإنّه ليس شيءٌ أدعى لنقمةٍ ، ولا أعظم لتبعةٍ ولا أحرى بزوال نعمةٍ ، وانقطاع مدّةٍ من سفك الدماء بغير حقّها ، ... فلا تقوّينَّ سلطانك بسفك دمٍ حرامٍ ، فإنّ ذلك ممّا يضعفه ، ويوهنه ، بل يزيله وينقله ، ولا عذرَ لك عند الله ، ولا عندي في قتل العمد ، لأنّ فيه قودَ البدن ، وإن ابليتَ بخطأٍ ، وأفرطَ عليك سَوطُك أو يدكَ بالعقوبة ، فإنّ في الوكزة فما فوقها مقتلةٌ ، فلا تطمحنَّ بك نخوةُ سلطانك عن أن تؤديَ إلى أولياء المقتول حقّهم"[25].

الوزراء والمستشارون :

ثمّ يرسم منهجاً لاختيار المسؤولين عن الناس ،فالحاكم يحتاج إلى وزراء ومستشارين وغيرهم في تسيير شؤون الحكم ،لذلك يدعو عليّ الحاكمَ إلى تجنب الأهواء والرغبات في تعيين الأشخاص ، ولابد من إخضاع هؤلاء للتجربة قبل تعيينهم في مناصبهم ، ثمّ يختار من ينجح في الاختبار والتجربة ، أو من هو من بيوتات الشرف وفضائل الأخلاق.يقول عليٌّ :" ثمّ انظر في أمور عمّالكَ فاستعملهم اختباراً ، ولا تولّهم محاباةً وأثرةً فإنهم جماعٌ من شعب الجَوْر

[20] المصدرالسابق 17\35

[21] المصدر السابق 17\39

[22] نهج البلاغة 17\27

[23] المصدرالسابق 17\87

[24] المصدر السابق 17\87

[25] المصدر السابق 17/85

والخيانة، وتوخَّ منهم لأهل التجربة والحياء من أهل البيوتات الصالحة، والقدم في الإسلام المتقدمة ، فإنهم أكرم أخلاقاً، وأصحّ أعراضاً ، وأقلّ في المطامع إشرافاً ، وأبلغ في عواقب الأمور نظراً"[26].

كما أنّ على الحاكم إبعادَ الوزراء الأشرار الذين شاركوا الحكام السابقين في الآثام تحسباً لإظهارهم خلاف ما يبطنون ، وتعيين وزراء عدول لم تأثم أيديهم في معاونة ظالمٍ على ظلمه ، ليكونوا أعوان الوالي الحقيقيين . يقول الإمام عليّ :"وشرّ وزرائك من كان قبلك للأشرار وزيراً ، ومن شركهم في الآثام ، فلا يكوننّ لك بطانةً ، فإنّهم أعوان الأئمة ، وإخوان الظَلَمة ، وأنت واجدٌ منهم خير الخلفِ ممن له مثلُ آرائهم ونفاذهم ، وليس عليه مثل آصارهم وأوزارهم وآثامهم ممن لم يعاون ظالماً على ظلمه ، ولا آثماً على إثمه ، أولئك أخفُّ عليك مؤونةً ، وأحسنُ لك معونةً ، وأحنى عليك عطفاً ، وأقلّ لغيرك إلفاً ، فاتّخذ أولئك خاصة لخلواتك وحفلاتك"[27].

شدّة الحاكم مع معاونيه :

وللحاكم منهج في التعامل مع مسؤوليه وأعوانه ، يوضّحه الإمام عليٌّ ، ويدعو الحاكم إلى التقيّد به ،من ذلك أن يغدق الحاكم على المسؤولين الأرزاق والخيرات ،لئلا يطمعوا في رشوةٍ أو مالٍ حرامٍ يُدفعُ إليهم مقابل فعل فيه ظلمٌ للرعية ، أو مكاسب تحققها هذه الجهة أو تلك ،ولتكون حجّة عليهم إن قصّروا في أعمالهم ، وأن يتابع ما يقومون به ،ويتفقدهم بين الحين والآخر وأن يبثّ العيون بينهم تراقبهم ،ثمّ إن ثبتَ جرم أحدهم بخطأ أو تقصيرٍ يشدّد عليه الحاكم –العقوبة علانيةً، ويَسِمُه بالخيانة جزاءً له وردعاً لسواه[28].

ويحضّ (ع) ولاته وعمّاله على إقصاء أصنافٍ من أهل العامة والخاصة ممن يضرّ قربهم وكثرة لقائهم ،إذ يحذّر من تقريب المغتابين الذين يبحثون عن معايب الناس ويتحدثون بها ،فالوالي –وهو حاكم الرعية– أولى بستر تلك العيوب ، يقول :" وليكن أبعدُ رعيتك منك وأشنأهم عندك أطلبهم لمعايب الناس فإنّ في الناس عيوباً الوالي أحقّ من سترها "[29].

مسؤوليات الحاكم في مجال القضاء :

ولا يغفل عليّ في وصاياه إلى عمّاله ركناً وثيقاً من أهمّ أركان صلاح الدّولة ، وهو القضاء ؛ إذ يوصي عمّاله بحسن اختيار القضاة ، ويرسم لهم في ذلك منهجاً دقيقاً يبدأ باختيار القاضي الأفضل ذي الحكمة والفطنة والأناة والخير والتقوى والحزم ، والبعد عن الضعف والتبرّم والزّهو وحبّ الإطراء . ومروراً بالإكثار من تعهّده بإقامة شرع الله وعدله، وإجزال العطايا له كي يصون نفسه من الضعف أمام الرّشاوى والعطايا التي تخلّ بعدالة الحكم ، وانتهاءً بتقريبِ القاضي إليه ليحميَه ويبعده عن أيّ سوءٍ . وبذا يأمن إقامة العدل وإحقاق الحقّ وطمأنينة الناس للعيش في مجتمع الخير والفضيلة[30].

مسؤوليات الحاكم في مجال الكتابة والتدوين :

– يلفتُ الإمام عليّ نظر الحاكم إلى مسألة انتقاء الكتّابِ الذين يدوّنون عهود الولاة والحكّام إلى الوجهات المختلفة ، إذ لا بدّ من حسن اختيار الكتّاب الثقاة الذين لا تدفعهم الظروف أيّاً كانت إلى فضح ما كتبه الوالي أو

---

[26]نهج البلاغة 17\53 وانظر 17\39

[27]المصدر السابق17\33

[28]المصدر السابق 17\53

[29]المصدرالسابق 17\28

[30]نهج البلاغة 17\45

تسريبه إلى العدوّ ، ثمّ يحذّر الواليَ من أن يكون اختيار الكتّاب مبنيّاً على الفراسة أو الانتقائيّة ، بل الاختيار يكون بعد اختبارٍ تُعرف من خلاله حقيقة هذا الكاتب أو ذاك ، يقول مخاطباً الأشتر النخعيّ عامله على مصرَ بكلامٍ طويلٍ نورد بعضاً منه :"... ثمّ انظر في حال كتّابك ، فولِّ على أمورك خيرَهم ، واخصص رسائلك التي تدخل فيها مكايدك وأسرارك بأجمعهم لوجود صالح الأخلاقِ ممّن لا تبطره الكرامة ، فيجترئَ بها عليك في خلافٍ لك بحضرةٍ ملأٍ ..."[31].

مسؤوليات الحاكم في علاقاته مع العدو:

أمّا فيما يتعلّق بالعلاقة مع العدوّ وقبول الصّلح معه وممّا يتّصل بهذا الموضوع ، فإنّ على الحاكم واجباتٍ حسّاسةً في ذلك ، إذ يدعو عليّ الحاكمَ إلى أن يقبل صلح العدوّ لكن مع الحذر الشّديد من أن يكون الصلح ذريعةً للغدر والخيانة ، يقول في عهده للأشتر :"ولا تدفعنَّ صلحاً دعاك إليه عدوّك ولله فيه رضىً ، فإنّ في الصّلح دَعَةً لجنودك ، وراحةً من همومك وأمناً لبلادك ، ولكنّ الحذر كلّ الحذرِ من عدوّك بعد صلحه ، فإنَّ العدوَّ ربّما قارَبَ ليتغفّلَ فخُذْ بالحزم واتّهم في ذلك حسن الظّنّ"[32].

ثمّ يضعُ شروطاً للصلحِ ، أوّلها : الوفاء بالعهد الذي قطعه الحاكم مع عدوّه ، فإن كان العدوّ غادراً فلا يجب أن يكون الحاكم كذلك . ثانيها : أن يرعى الأمانة لما في ذلك من حفظ البلاد والرّعيّة . ثالثها : أن يكون عقد الصّلح واضحاً ، لا لبس فيه، ولا مجال لتسويغِ نقضه ، "فلا إدغال ولا مدالسةَ ولا خداعَ فيه"[33]. رابعها: الأناة والصبر حتى في العقود التي أُبرمت ، ثمّ حدث بعدها ضيقٌ يفرجه انفساخ العقد ، فليتذكّر الحاكم أنّ هذا العهد هو عهد الله – تعالى– ، يقول في كلامٍ طويلٍ في عهده إلى الأشتر نقتبس منه "وإنْ عقدت بينك وبين عدوٍّ لك عقداً ، أو ألبسته منك ذمّةً ، فحُط عهدكَ بالوفاء ، وارعَ ذمّتك بالأمانة ... ولا تعقده عقداً تجوّز فيه العلل ، ولا تعوّلنّ على لحن القول بعد التأكيد والتوثقة ، ولا يدعونّك ضيق أمرٍ لزمك فيه عهد الله إلى طلب انفساخه بغير الحقّ ، فإنَّ صبرك على ضيق أمرٍ، ترجو انفراجه وفضل عاقبته خيرٌ من غدرٍ تخاف تبعته ، وأن تحيطَ بك من الله طِلبةٌ ، لا تستقيل فيها دنياك ولا آخرتك"[34].

ولأنّ الإمام عليّاً يسعى إلى بناء الدولة الإسلامية القوية والمنيعة ،فهو يرسم هيئتها ، ويحرص على متابعة شؤونها بكل جوانبها ، صغيرها وكبيرها ، بدءاً من اختيار الحاكم ، والصفات التي تسم شخصيّته ، واضطلاعه بمسؤولياته ، مروراً بحسن اختيار الوزراء والقضاة والكتّاب ، وطريقة التعامل مع العامّة والخاصّة ، وانتهاءً بالعلاقات الخارجيّة مع العدوّ والصديق ، فإذا ما التزم الحاكم بتوجيهات إمامه ، ووضع رضى الله تعالى ورسوله (ص) وطاعة إمامه نصب عينيه شيدت دولةٌ منيعةٌ خافها العدوُّ وصارت مثلاً يُحتذى[35].

دراسة نصّ مقتطف من كتاب الإمام عليّ إلى عامله على مصرَ :

النصّ : (بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما أمر به عبد الله عليّ أميرُ المؤمنين مالكَ بن الحارثِ الأشترَ في عهده إليه حين ولاهُ مصرَ :جبايةَ خراجها، وجهادَ عدوّها ، واستصلاحَ أهلها ، وعمارة بلادها .

---

[31] ينظر تفصيلات ذلك ، المصدرالسابق 17\58

[32] المصدرالسابق 17\82

[33]المصدر السابق 17\82

[34] ينظر تفصيلات ذلك ,نهج البلاغة 17\82

[35]ينظر المصدر السابق 17\14

أمرهُ بتقوى الله وإيثار طاعته، واتباع ما أمرَ به في كتابه : من فرائضه وسننه التي لا يُسعد أحدٌ إلا باتباعها، ولا يشقى إلا مع جحودها وإضاعتها، وأن ينصرَ الله سبحانه بقلبه ويده ولسانه ،فإنه جلّ اسمهُ قد تكفّلَ بنصرِ من نصرهُ وإعزازِ من أعزّه .

وأمرهُ أن يكسر نفسه من الشهوات ويزعها عند الجمحاتِ ،فإنّ النفس أمّارةٌ بالسوءِ إلا ما رحم الله .

ثمّ اعلم يا مالكُ أني قد وجهتكَ إلى بلادٍ قد جرت عليها دولٌ قبلكَ من عدلٍ وجورٍ ، وأنّ الناسَ ينظرون من أمورِكَ في مثلِ ما كنتَ تنظرُ فيه من أمور الولاة قبلكَ ،ويقولون فيك ما كنتَ تقولُ فيهم ،وإنما يُستدلُّ على الصالحين بما يُجري الله لهم على ألسنِ عبادهِ ،فليكن أحبَّ الذخائرِ إليكَ ذخيرةُ العمل الصالحِ فاملك هواكَ ،وشحَّ بنفسكَ عمّا لا يحلّ لكَ ،فإنّ الشحّ بالنفس الإنصاف منها فيما أحبّت أو كرهت ،وأشعر قلبكَ الرحمةَ للرعية والمحبة لهم واللطفَ بهم ، ولا تكونّن عليهم سبعاً ضارياً تغتنم أكلهم ،فإنهم صنفان إمّا أخٌ لكَ في الدين وإمّا نظيرٌ لكَ في الخلق ، يفرُطُ منهم الزلل، وتعرضُ لهم العلل ، ويؤتى على أيديهم في العمد والخطأ)[36].

يظهر العهد المسؤولية التي يضطلع بها عليّ – وهو خليفة المسلمينَ – في مراسلاته لولاته على الأمصار ،فليس الأمرُ أن يرسلَ الخليفة والياً ليحكم في بلدٍ ما ،فيكونَ اختيارهُ أو تعيينهُ إجراءً اعتياديّاً من منطلق ملءِ المناصبِ بالرجال،وإنما الحذر كلّ الحذر يستدعيه هذا الأمر ،لما فيه من مسؤوليةٍ أمام الله–تعالى– وأمام الرعية المؤتمن عليها .

1. المستوى النحويّ :

أ. استعمال أسلوبي الخبر والإنشاء :

تراوحت عبارات العهد بين الأسلوبين الخبريّ والإنشائيّ ،إذ إنّ فحواه إخباريٌّ توجيهيٌّ إرشاديّ ،وهنا يمكن القول إنّ النصّ ينحو في اتّجاهين ؛ الأوّل : أسلوب الغائب وهو الأقصر (هذا ما أمر به عبد الله عليّ أمير المؤمنين ....) (أمره بتقوى الله وإيثار طاعته....) (وأمره أن يكسر نفسه ....) ، والثاني : أسلوب المخاطب ويشمل باقي أجزاء الخطبة ، وهو الأطول (ثمّ اعلم يا مالك ...) (فليكن أحبّ الأمور ...) (فاملك هواك ..) .

لقد اقترن أسلوب الغائب بتوجيهات عليّ لواليه لكنها توجيهات تخصُّ أيّ والٍ في أيّ زمان ومكانٍ ،فمهامُ الوالي من جباية الخراج ،وجهاد العدوّ ،واستصلاح الأهل ،وعمارة البلاد ،هي مهامٌ يضطلع بها الولاةُ كلّهم مهما بلغت درجة رُقيّ البلد واستقراره ،ثمّ إنّ طاعةَ الله وتقواه والامتثالَ لأوامره واجتناب نواهيه هي أشياءُ لا تخصّ الأشترَ دون غيره ،فضلاً عن ذلك يظلّ إمساك النفس عن الشهوات وكبح جماحها عن الانزلاق في مهاوي الضلال واجباً ينبغي على مَن تولّى مسؤوليةً ما الالتزام والعمل على ديمومته .

ب. أسلوب التوكيد

اغتنى النصُّ بمؤكدات الجمل الاسمية والفعلية ،وإذا قمنا بإحصاء مؤكدات الجمل في النص المقتطف من العهد فإننا نقع على سبعةٍ وعشرين مؤكّداً تتوزع على أنواع خمسةٍ هي :

– (إنَّ) الحرف المشبه بالفعل المختصّ بالجمل الاسمية :"فإنه – جلّ اسمه – قد تكفّل بنصر من نصره ،وإعزازِ مَن أعزّه " ،" فإنّ النفس أمّارةٌ بالسوء إلا ما رحمَ الله "،"وإنما يُستدلّ على الصالحين بما يجري الله لهم على ألسن عباده "،" فإنك فوقهم ".

–(إمّا) الشرطيّة : ".... فإنهم صنفان إمّا أخٌ لك في الدين وإمّا نظيرٌ لك في الخلق " .

– (أنّ) الحرف المشبه بالفعل المختص بالجمل الاسميّة : "وأنّ الناس ينظرون "،"واعلم أنّي ... " .

[36] المصدر السابق 17\24-27

– (قد) المتبوعة بالفعل الماضي ، أي المختصّة بالجمل الفعليّة : "... قد وجّهتُكَ إلى بلادٍ قد جرت عليها دولٌ قبلك من عدلٍ وجَورٍ" ، "وقد استكفاكَ أمرهم وابتلاك بهم ".

– (نون التوكيد الثقيلة) : المتّصلة بالفعل المضارع ، فتبني الفعل على الفتح وتؤكد ضرورة حدوثه ، وهي بدورها مختصّة بالدخول على الجمل الفعلية :"... ولا تكوننّ عليهم سبعاً ضارياً تغتنم أكلهم" .

ويمكن تناول بعض الشواهد بالدراسة والتحليلِ، لاستبطان مدلولاتها ومراميها المختلفة .

– يقول الإمام عليّ :" فإنّه جلَّ اسمهُ قد تكفّل بنصرِ مَن نصره وإعزاز مَن أعزّهُ " . نلاحظُ أنّ هذا النصّ احتوى مؤكدين ،مؤكد للجملة الاسمية (إنّ) ،ومؤكّد للجملة الفعلية (قد)مع الفعل الماضي لأنّ المقام يقتضي مثل هذا التوكيد ،إذ يُخيّلُ للحاكم أنّ منصبهُ يؤمن له الحمايةَ ،وقد يُحدِث له في نفسه أُبّهةً وتجبّراً وزهواً ،ويوهمهُ أنّ هذا المنصبَ الذي هو فيه يحميه مما يكرهه ويسوءُهُ ،ولذلك نجد أميرَ المؤمنين يُزيلُ هذه الشبهة والوهمَ من ذهنِ الأشتر ،ويذكّره بأنّ النصر والتأييدَ والحماية لا ينالها الحاكمُ إلا من الله تعالى ، ﴿وما النصرُ إلا مِن عندِ الله ﴾[37] مؤكّداً له أنّه بمقدار ما يلتزمُ الحاكمُ بأداءِ حقوقِ الله والقيام بها ،يكون تأييدُ الله له ونصرهُ ،وبمقدارِ ما يطبّقُ حدودَ اللهِ من عدلٍ بين الناسِ وحسنِ إدارةٍ لشؤونهم ، ومراقبته نفسه ،وانضباطه في حدودِ ما كُلّفَ به من مهامه يكونُ نصرهُ وإعزازهُ .

–يقول الإمام عليّ :" وإنما يُستدلُّ على الصالحينَ بما يجري اللهُ لهم على ألسنِ عبادهِ " . لقد قصرَ عليّ استقامةَ واليه على رضى شعبه عنه ،وهو ما أدّته الأداة (إنّما) التي أفادت التوكيد والقصر ،إذ يرى النحاة أنّ "(إنّما) لإثبات ما يُذكرُ بعدها ،ونفي ما سواه ،ولصحّةِ انفصال الضمير معها"[38]* . ويرى الدكتور أسعد علي أنّ الأداة (إنما) " تفيد في الكلام بعدها إيجاب الفعل لشيءٍ ونفيه عن غيره "[39] يفهم من ذلك أنّ للاستدلال على الصالحين سبلاً شتى لكن سياق الكتاب المرسَل من عليّ إلى واليه على مصر يُظهر سبيلاً واحداً للاستدلال على الصالحين يتمثّل في صوت الرعيّة ونظرتهم إلى راعيهم أي رأيهم فيه . وبذلك يستند حكم الخليفة على الوالي يستند إلى الرعية وما تتداوله ألسنتهم ، وبالتالي باستطاعة الوالي الحفاظ على سمعته واستمالة شعبه وكسب ودّهم بما يقوم به من تأمين متطلباتهم والحكم بشريعة الله –تعالى– .

– يقول الإمام عليّ :" ولا تكوننَّ عليهم سبعاً ضارياً تغتنم أكلهم " . نلاحظ هنا أبعاد التوكيد المقترن بالنهي، فـ (لا) ناهيةٌ والفعل المضارع مؤكّدٌ بنون التوكيد الثقيلة ،لما للمقام من خطورةٍ على سلوكِ الحاكمِ ،فكثيراً ما ينحرف عن المهمة التي جاء من أجلها لينشغل بمصالحه الفردية من جمع للثروة وانشغال عن مصالح الأمّة ،وهذا هو العُرف الشائعَ عند أغلب الحكّام –الولاة ،ولذلك نجد عليّاً يحذّر الأشتر ، وينهاه عن سلوك هذا الطريق ، مبيّناً له خطورته على الصالح العام ،وما يلحقه من أذىً أمام مَن ولاه ،فهو مراقَبٌ في سلوكه ،مسؤولٌ عنه لن يُتركَ إن أهملهُ ،بل

---

[37] الأنفال –10

[38] ينظر التلخيص في علوم البلاغة –القزويني الخطيب ، ضبط وشرح عبد الرحمن البرقوقي ، الطبعة الأولى ، المكتبة التجارية الكبرى، مصر ، 1904م ، صـ 141

***استدلوا على صحة انفصال الضمير معها بقول الفرزدق : أنا الذائد الحامي الذمار وإنما يدافع عن أحسابهم أنا أو مثلي**

[39] ثمّ يتابع في السياق ذاته :" ...فإذا قلت :إنما جاءني زيدٌ .لم يكن غرضكَ أن تنفي أن يكون قد جاء مع زيدٍ غيرهُ ولكن أن تنفي المجيء الذي قلت إنّه كان منه كان من عمرو ،كذلك تكون الشبهة مرتفعةً في أن ليس ههنا جائيان إلا جاءٍ واحدٌ ،وإنما تكون الشبهة في أنّ ذلك الجائي زيدٌ أم عمرو .فإذا قلت :إنما جاءني زيدٌ حققتَ الأمر في أنّه زيدٌ وكذلك لا تقول : إنما جاءني زيدٌ ،حتى يكون قد بلغ المخاطب أن قد جاءكَ جاءٍ ولكنه ظنّ أنه عمرو مثلاً فأعلمته أنّه زيدٌ ". ينظر ،علم المعاني ومقتضى الحال ،الجزء الثاني ،مقتضى حال المعاني في بلاغة الخبر د. أسعد علي ،مطبعة الاتحاد – دمشق الطبعة الأولى ،1987–1988 ،ص 497 –498

سيحاسَبُ ،فبدلاً من أن يكون في خدمة الأمة وإصلاح شأنها ،لا يجوز له بحالٍ من الأحوال أن ينشغلَ عنها بمصلحتهِ الفردية وظلمِ العباد ، ليحقّق مآربه الشخصية ،ونلاحظُ قيمةَ الصورة البيانية في أداء المعنى ،إذ يشبّهُ الحاكم الظالمَ بالوحش الضاري الذي يغيرُ على فريستهِ تمزيقاً وتقطيعاً ،وأيّ فريسةٍ تلكَ ؟ إنها عامّةُ الشعب –الرعية التي يُناطُ صلاحها بصلاحه ،وفسادُها بفساده ،فتظهرُ الحركةُ الضديّةُ التي تنشأ في عالم الظلم ،العالم الذي تحكمه شريعةُ الغاب، إذ تتطلّب استمراريّةُ الحياة فناءَ الآخر ،فالحياةُ يقابلها الموت ،ولا مكان لخيارٍ ثالثٍ في هذه (المعادلة) ،فيكون بقاء الوحش مرتبطاً بفناء الفريسة ،والبقاء للأقوى،أي بقاء الحاكم الظالم المستبد ، واستمراريتهُ منوطةٌ بإفقار عامة الناس وممارسة الظلم والاستعلاء عليهم ، من هنا يكمن سرّ مسؤولية الحاكم ودوره إصلاحاً أو إفساداً ،وعلى ذلك تترتبُ مكافأتهُ أو معاقبتهُ .

ج. تنوّع الجمل (الاسميّة والفعليّة) في النّصّ :

كان للجمل الاسمية والفعلية دورٌ في إضفاءِ الحيوية والحركة على المقتطف ،فلم ينحصر استخدامها في مواضيعَ دون أخر، وإنما نجدُ التلازمَ في الصيغ الفعلية والاسمية ،وفي ذلك دلالةٌ واضحةٌ على الغزارةِ في الفكر والمعاني التي أراد عليّ إبلاغها للمخاطب خصوصاً ،وللحاكم عموماً ،فبثّها في ثنايا الكتاب .

".... إنّ الشحّ بالنفسِ الانصاف منها فيما أحبّت أو كرهت ،وأشعر قلبكَ الرحمةَ للرعية والمحبة لهم واللطف بهم، ولا تكوننّ عليهم سبعاً ضارياً تغتنم أكلهم ... " .نجد في هذا المقطع –على سبيل المثال لا الحصر– جملة اسميّة واحدةً وجملاً فعلية كثيرة ،تنوعت أفعالها بين الماضي والمضارع والأمر ،فالجمل الفعلية تدلّ –في العُرف النحوي– على الحيوية والحركة وعدم الثبات ،في حين تدلّ الجمل الاسمية على الثبات والدوام ،وهذا ما يظهر المهمة الموكلة إلى هذا الوالي التي تتطلّب منه العملَ الدؤوبَ والسعي إلى نشر الفضيلة والعدالة وبناء المجتمع (المصري) والسير به نحو الأفضل ، لا أن يصيبه بحالٍ من الجمود والثبات على حال الضعف والانهيار (الركود) .

لقد مالت الجمل إلى الطول في معظمها استدعتها الحاجة إلى الإيضاح وزيادةِ الشرح والإفهام والتركيز على الموضوع لبيان أهميته ، ويرى الدكتور زكي مبارك أنّ الإمام عليّاً كان "يطيل حين يكتب عهداً يبيّن فيه ما يجب على الحاكم في سياسة القطر الذي يرعاه"[40]

ومن مواضعِ الإطالة والتي جرت مجرى التوسع في الشرح بغيةَ الإيضاح ووضع المنهج ،قول عليّ :"... فأعطهم من عفوكَ وصفحكَ مثلَ الذي تحبّ أن يعطيك الله من عفوه وصفحه ،فإنّك فوقهم ، ووالي الأمر عليك فوقك ،والله فوقَ من ولاكَ ".

د. الأمر والنهي :

غلب الأمرُ والنهيُ على النصّ المقتطفِ من العهد ،وهما أسلوبان حفلَ بهما الخطابُ الإسلامي بدءاً من القرآن الكريم الذي ما فتئ يأمرُ الناسَ بفعل الخير ، وينهاهم عن فعل السوء ،والشيءُ نفسهُ أيضاً في السُّنّة النبوية الشريفة وسائر خطب ذلك العصر .وتخرجُ جميعها في النصّ المقتطف إلى النصح والإرشاد اللذين يُظهران مسؤولية الوالي ، أو التحذير من ظلم الرعية ، والتهديد من إقامة الحكم على المظالم .

هـ . أسلوب النفي :

يَرِدُ أسلوب النفي في غير موضعٍ من المقتطف ،لكنه يكاد يلزم صيغةً واحدةً للنفي هي (لا) النافية . "لا يُسعدُ أحدٌ إلا باتباعها ،ولا يشقى إلا مع جحودها وإضاعتها " ،وترافقَ النفي هنا مع الاستثناء ،إذ حصرَ السعادةَ باتباع أوامر

[40] **النثر الفني في القرن الرابع , دار الجيل . 1\69**

الله واجتناب نواهيه،وأفاد تنكير (أحد) إطلاق العموم أي لا يُسعد أحدٌ على الإطلاق ،وهذا إمعانٌ في النفي وحصر السعادة يرضى الله عزّوجل .

و. أسلوب التقديم والتأخير :

أسلوب التقديم والتأخير أسلوبٌ بليغٌ في اللغة ، وقد برع به العربُ ، وكان يجري في أشعارهم مجرى السليقةِ حيناً والتكلّف والصنعة طوراً آخر ، ولم تخلُ أراء النقاد وكتاباتهم من التعريج عليه ، وذكر مواطن الجمال والقبح فيه، "ومن البديهيّ أنّ التقديم والتأخير لا يظهر إلا من خلال التركيب ، بل لعلّه أظهر ما يقوم به المبدعُ من تركيبٍ ، ومن البديهيّ أيضاً أن مبحث التقديم والتأخير يتعلّق أساساً بطبيعةِ اللغةِ التي يتمّ فيها ؛ إذ ليست إمكانات اللغات في ذلك على حدٍّ سواء"[41].

ومن المعلوم أنّ العرب كانوا يقدّمون ما له أهميّةً في نفوسهم ضمن ما يسمّى بِـ (تقديم ما حقّه التأخير)[42]، فيُستدلّ على درجة أهمية الموضوع من خلال الموضع الذي وُضعت فيه المفردةُ أو التركيب خلافاً للرتبةِ النحويّة في أصل وضع اللغة ،

ولا غرابة بعد ذلك أنّ نلمس – في نصّ عليّ الموجود بين أيدينا – وجوداً لهذه الظاهرة وإن بدرجات متفاوتة – بحسْب مقتضى الحال – ويمكن عرض بعضها على سبيل المثال لا الحصر . يقول عليٌّ :"ثمّ اعلم يا مالك أنّي قد وجّهتك إلى بلادٍ قد جرت عليها دولٌ قبلك من عدلٍ وجور" ، فنجده يقدّم الجارّ والمجرور (عليها) على الفاعل (دولٌ) وحقّهما –أي الجار ولمجرور– التأخير ،ولكن لما كانا عائدين على البلاد التي تعاقبَ على حكمها حكامٌ وولاةٌ منهم العدولُ ومنهم الجائرونَ ،كانت البلاد –وقصد بها أهلها – أكثر أهميةً وأولى بالرعاية ممّن حكمها فقدّم ماله أهمية ،وهم (أهل البلاد) على ما دونه وهم (حاكمو البلاد) بنوعيها العادل والجائر .

ومثل ذلك قوله :" فليكن أحبَّ الذخائر إليك ذخيرةُ العمل الصالح " . قدّم خبر الفعل الناقص (أحبّ) على اسمه (ذخيرة) لعلّةٍ معنويةٍ تتعلّق بسياق الكلام ؛ فقد أراد أن يدعو واليه إلى تمثّل القيم والفضائل جميعها ،وخصّ منها العمل الصالح ،فقدّم العامّ لأنّه الأشمل على الخاص .وفي ذلك دفعٌ للمتلقي إلى إعمال تفكيره وشدٌّ انتباهه إلى ما سيلقى من كلامٍ .

ز. أسلوب النداء :

أمّا النداء فلا نقع سوى على منادى واحد ، شكّل نقطة الالتفات في النصّ ، والانتقال من خطاب الغائب إلى خطاب الحاضر –المخاطَب " واعلم يا مالكُ ...." حيثُ وردَ بعد صيغة الأمر على سبيل الاعتراض أراد أن يُشدَّ انتباه المخاطب إلى ما سبق من كلامٍ وسيأتي لاحقاً .

2. **المستوى الصرفيّ** :ويشمل هذا المستوى :

أ. المصادر :

ولو عرّجنا قليلاً على الجانب الصرفي لاستوقفتنا كثرةُ المصادر الواردة في المقتطف حيث يلفت الانتباه ورودُ أكثر من سبعةٍ وخمسين مصدراً على اختلاف أنواعها – في بضع صفحاتٍ ،ومنها (جباية –جهاد –استصلاح –عمارة –إيثار –اتباع –جحود – إضاعة ...)والمصدر كما يعرفه النحويون هو الاسم الدالّ على الحدث المجرّد من الدلالة

---

[41] الانزياح في التراث النقديّ والبلاغيّ , د.أحمد محمد ويس , اتّحاد الكتّاب العرب , دمشق , صـ 163

[42] ينظر كتاب سيبويه , الجزء الأول , تحقيق عبد السلام محمد هارون - الهيئة المصريّة العامّة للكتاب - 1977 , صـ 56

الزمنية[43]،لأنّ الدلالة الزمانية في العربية مأخوذةٌ من الصيغة الصرفية للفعل كما هو معلوم ،فتكون دلالته ،إذاً ،مطلقة في الزمن غير مقيدة . فكأنّ علياً أراد بذلك التنبيه إلى هذه الأحداث وجعلها مطلقة غير مقيّدة بزمن كي تظلّ متمتّعة بالحيويّة والحركة وواجبة التطبيق في كلّ زمان ، فيكون المقتطف بذلك قد ذخرَ بأعداد كبيرة جداً من الأحداث ،هذا إذا أضفنا إليها الأفعال بأنواعها المختلفة.

ب. المشتقات :

إلى جانب المصادر ترد سائر المشتقات ،وإن كان دورها بدرجةٍ أقلّ كاسم الفاعل (الصالحين ،ضارياً) ومبالغته (أمّارة) ، وجميعها تنطوي على إيقاعات موسيقية متنوّعة ، تطرب لها الأذن ،ويستسيغ المتلقي تلمّس دلالاتها ؛ فاسم الفاعل (الصالحين) – "وهو وصفٌ أو اسمٌ مشتقٌ يدلّ على شيئين : على حدثٍ طارئٍ لا يدومُ ،وعلى مَن قام به وأحدثه"[44]– يدلّ أنّ على الوالي السعي جاهداً كي يتمثّل هذا الوصف ، ويحافظ لتتناقل الألسن مدائحه ومكارم أخلاقه فيحظى برضى الله ورضى الرعيّة .

3. المستوى البياني –الجمالي وانعكاساتهُ الدلالية :

لقد أراد الإمام عليّ أن ينبّه واليه من غوايات الشيطان الذي يزيّنُ الشرّ ، ويقود المرء إلى مزالق الضياع والضلال ، فيعرّفه بالمحظور قبل الوقوع فيه ، فاستخدم (الكسر) في قوله :"أَمَرَهُ أن يكسرَ نفسهُ من الشهوات ، ويَزَعها عند الجمحاتِ ، فإنّ النفسَ أمّارةٌ بالسوءِ إلا ما رحمَ الله" ، لما في (الكسر) من إكراه النفس وقهرها عن شهواتها . الأمر الذي يُظهر مدى الصراع الداخليّ المرير الذي يخوضهُ المرء مع نفسه ،فتنشأ حركةٌ ضديّةٌ في اتجاهين متعاكسين تبدو فيه النفسُ متجهةٌ صوبَ تحقيق رغبات الغريزة – يمكن توصيفها بالنازلة – ،في مقابل صوت العقل المناقض لرغبات النفس –بالمعنى السيكولوجي – الذي يقف في طريقها ، في اتجاهٍ صاعدٍ .

وهكذا يلتقيان في نقطةٍ ما ،لا يصحُّ عندها التساوي أو التعادل وإنما تقتضي بدهيات العقل أن ينتصر أحدهما على الآخر ،فإمّا غلبة العقل على العاطفة وما فيه من صعوبة كبح جماحها ،وإمّا التسليم لها والخضوعُ لمتطلباتها التي تلبي حاجاتٍ ، غالباً ما تكون لحظيّة فحسب ، ويمكن التمثيل لتلك الثنائيّة الضدّيّة بالشكل الآتي:

نلحظ منه أنّ اتّجاه إرادة العقل أصعب من العاطفة التي تهبط شاقولياً ، إذ إنّ على العقل أن يردّها صعوداً ، من هنا نكتشف بلاغة قول عليّ "أن يكسر نفسه" ، إذ إنّ الرغبة – العاطفة لا تلين أمام العقل الذي يضطر إلى كسرها ، محوّلاً حركتها في اتّجاهٍ معاكسٍ تماماً لاتّجاهها الذي تسلكه .

حركة النفس (الرغبة)

حركة الإرادة (العقل)

شكل (1)

يبدو أنّ الحديث الدينيّ ذو أبعادٍ فلسفيّةٍ نفسيّةٍ سابقةٍ لعصره ؛ إذ نجد في علوم النفس المعاصرة في الغرب سباقاً للحديث عن الصراع القائم بين الـ (أنا) والـ (هو) بين الشعور واللاشعور، وغالباً ما يكون طرفاه صوتَ العقل والإرادة من جهةٍ والرغبة في كسر الإرادة والأعراف والتقاليد من جهةٍ أخرى . ونجد جانباً آخر من الصور في المقتطف

[43]انظر كتاب سيبويه 12/1

[44]الواضح في النحو والصرف ، قسم الصرف ، د. محمد خير الحلواني ،الطبعة الثالثة ، منشورات مكتبة الشاطئ الأزرق ، 1979م ، صـ 223

من العهد ينتقل فيه عليٌّ من التلميح إلى التصريح والوضوح في توجيه سلوك الوالي المسؤول ، إذ يقول :"ولا تكونّن عليهم سبعاً ضارياً تغتنم أكلهم ،فإنهم صنفان إمّا أخٌ لكَ في الدين وإمّا نظيرٌ لكَ في الخلق" يكمن الوضوح في أسلوب الكلام المرسل الذي يجري فيه الكلام بيسرٍ وسهولةٍ دون تكلّفٍ أو تنميقٍ في العبارات ، إذ يحذّر فيه الأشترَ من أن يتشبّه بالسّبع الضّاري في التجبّرِ واستغلال قوته وضعف مَن سواه لتحقيق مآربه معلّلاً سبب ذلك أنّ البشر صنفان ، إمّا أخٌ في الدين ، وإمّا نظيرٌ في الفطرة الإنسانية ، وهي علّةٌ كافيةٌ تحرّك إنسانيّة الحاكم وتوجّهه نحو العدل ، وتقتل في نفسه السّبع المتوحّش المتعطّش للظلم وسفك الدماء ، ولذا يدعوه أن يكونَ إنساناً غير متوحّشٍ .

4. المستوى الصّوتيّ – الإيقاع :

يقوم النصّ في جزئيّته المقتطفة على أطياف البديع المختلفة ، فتغنيه معنويّاً وتكسوه وشياً منمّقاً ،لا يبدو في أيّ شكلٍ من الأشكال صنعةً متكلّفةً .

أ. السجع :

نجد في المقتطف غير نوعٍ للسجع ، حيث يكثر السجع المطرّف – وهو في عرف البلاغيين اتفاق الفواصل في القافية دون الوزن[45]– ومن أمثلته قول عليّ "أشعر قلبك الرحمةَ للرعيّة والمحبّة لهم واللطف بهم ، ولا تكوننّ عليهم سبعاً ضارياً تغتنمُ أكلهم" ، إذ إنّ الإيقاع الناشئ من صوت الضمير المتّصل (هم) يُتمّ الدعوة التي أطلقها عليٌّ لواليه على مصرَ بوجوب العطف والشفقة على قومه المستضعفين ، كما يظهر التوكيد الذي يلحّ عليٌّ عليه في اقتران (هم) بحرف الجرّ ثمّ بإضافة كلمة (أكل) إليه ، ومجيء ضمير الجماعة ساكناً يشي بضعف الشعب وتقييدهم ، الأمر الذي يجعل الوالي في مقابل شعبه، وهو ما حدا بالخليفة للمسارعة إلى تحذير واليه من ظلم الرّعيّةِ .

ومن السجع أيضاً – في المقتطف – السجع المتوازي ، وهو – كما يراه البلاغيون . اتفاق الفاصلتين المسجوعتين في الوزن والقافية معاً[46]– يقول عليٌّ : "أمره أن يكسر نفسه من الشهوات ، ويزعها عند الجمحات" ، تبدو جمالية الإيقاع في مجيء كلّ من (الشَّهَوَات ، الجَمَحَات) على وزن (الفَعَلات) وانتهائهما بـ (ات) ثمّ مجيئها بصيغة الجمع ، وكأنّ في ذلك تنبيهاً للوالي من أنّ ما عرض ، أو سيعرض لنفسه ليس موقفاً واحداً ، أو حادثةً واحدةً تغريه بملذات الحياة ومتاعها ، وتبعده عن رضى الله ، وإنّما هي رغباتٌ لا تتوقّف ، وحوادثُ لا تنتهي لا بل تزداد قوّةً ، وكلّما كان رفضه لها أقوى عاودته بزخمٍ أكبر ، ولبوسٍ مغايرٍ ، أكثر خفاءً . ثمّ يجيءُ قول عليٍّ ليدعمَ ذلك :"فإنَّ النفسَ أمّارةٌ بالسوءِ إلا ما رحم اللهُ".

ب. الجناس :

ويرد الجناس بدرجةٍ أقلّ من سابقيه من ألوان البديع ، فمنه قول عليٍّ :"فإنّهم صنفان ... يفرط منه الزّلل وتعرض لهم العلل" إذ وقع الجناس بين (الزلل والعلل) وهو ما يسمّيه البلاغيون الجناس اللاحق لوقوع الاختلاف بين الكلمتين في نوع الحرف من حيث المخرجُ الصوتيّ ، إذ تتفق الكلمتان في توالي اللامات ، وتختلف في الزّاي والعين – وهما ليسا من مخرجٍ واحدٍ –والثابت الوحيد في كلّ ما سبق ما ينطوي عليه التجنيس من شدّ انتباه الوالي إلى تلك المفردتين ثم التنبيه إلى مضمونيهما ، فمن البديهيأن تقع الرعيّة في الخطأ ، ويبدرَ منها الزلل ، وتمرَّ بمحنٍ ومصائبَ قد تدفعها للوقوع في الخطأ ، وليس في ذلك تسويغٌ لأخطائها لكن تجنّباً لظلم الرعيّة ، ومراعاةً لأحوال الناس المختلفة

[45] التلخيص في علوم البلاغة صـ397-398

[46] التلخيص في علوم البلاغة , صـ 398-399

على اختلاف طبائعهم ومشاربهم ، ثمّ إفساحاً في المجال للعفو والصفح قبل العقوبة وللعقل قبل الهوى ، ليكون التسامح والرحمة أساس التعامل مع الرعيّة ، وليكون الكيُّ آخرَ الدواء كما يُقال .

ج. الطباق :

ومن حلى البديع ما هو معنويّ وهذا ينطوي على جانبٍ واحدٍ فقط ، إذ يُرصَد فيه جانبٌ جماليٌّ في اللفظ غالباً، وإنّما يقتصر على المعنى ، يرد الطباق غير مرّةٍ في النصّ ، ومنه قول الإمام عليٍّ :"من فرائضه وسننه التي لا يُسعَد أحدٌ إلا باتّباعها ولا يشقى إلا مع جحودها وإضاعتها". فـ (يُسعدُ) ضدّ (يشقى) ، تبدو السعادة مقرونةً باتباع ما أمر الله تعالى به ، ويبدو (الشقاء) في إنكار تلك الأوامر أو إهمالها.لقد أجلى الطباق المعنى بذكر الشيء ونقيضه ، فالأشياء تتضح بضدّها – كما هو معروف – ؛ فالمرءُ لن يعرفَ قيمة السعادة إلا إذا أبحر بمخيّلته في بحار الشقاء ، وأغرق فكره في أمواجه المتلاطمة ، كذلك لن تنفر من الأعمال التي تورده الشقاء والهلاك إن لم يَجُل بخياله في فضاء السعادة ، ويسرّحْ ناظريه في أكوانها الفسيحة .

د. التآلف والتنافر بين الحروف :

ولا يكتمل الكلام على الجانب الإيقاعيّ من دون الحديث عن تآلف الحروف وتنافرها ضمن مفردات النصّ . يرى علماء اللغة أنّ أحسن التأليف بين الحروف ضمن الكلمة الواحدة هو تأليف المتباعدة[47]. ونجد أنّ اللغويين حينما قسّموا أصوات الحروف إلى أقسام شتّى تبعاً لمخرجها الصوتيّ ، استقبحوا أن تجتمع الحروف ذات المخرج الواحد في كلمةٍ واحدةٍ إلا في حالات نادرةٍ ، والنصّ المقتطف يغتني بما سمّاه ابن جنيّ (تأليف المتباعدة) ، أي اجتماع حروفٍ ذات مخارج متباعدة في كلمةٍ واحدةٍ ، وهو أحسن التأليف ، ففي قول عليّ :"... حين ولاّه مصرَ ،جباية خراجها ، وجهاد عدوّها ، واستصلاح أهلها ، وعمارة بلادها" . نجد جميع أصوات المفردات ذات مخارج متباعدة ، ويغلب صوت الجيم والهاء عليها ، فضلاً عن صوت العين الذي يعدّه الخليل بن أحمدَ الفراهيديّ – مع القاف –مطلقاً، إذ يقول:"العين والقاف لا تدخلان في بناءٍ إلا حسّنتاه ، لأنّهما أطلقُ الحروف وأضخمُها جرساً"[48]، ولا سيّما إذ تلازمت مع الدّال . كما أنّ الجيم صوتٌ شديدٌ مجهورٌ[49]، يضفي القوّة على معاني النصّ ، ويظهر للوالي مع صوت الدال والياء والميم والراء التي يجمعها الجهر – والشدّة في معظمها – تُظهر العزم والحزم اللذين ينبغي للوالي الاتّصاف بهما ، كما تظهر التشدّد الذي يبديه الخليفةُ في إلزام الوالي بالعمل على عمارة بلاد مصر وإصلاح شأن أهلها.

ثمّ يليه في الحسن تضعيف الحرف نفسه ، ويجيءُ بعد الأول، وقد قُصِدَ به تكرار الحرف ، ولم يُعدّ عيباً لأنّ "المكرّر معرّضٌ في أكثر أحواله للإدغام"[50].

يقول عليٌّ: "فإنّهم صنفان ... يفرط منهم الزلل ، وتعرض لهم العلل ..." نجد ائتلافاً بين أصوات اللام ذات المخرج الواحد (الزلل ، العلل) ، ولا سيّما أنّها أتت بعد حرفٍ بعيد المخرج الصوتيّ عنها كالزاي، وهو حرفٌ أسليّ ،

---

[47]ينظر مثلاً , سرّ صناعة الإعراب , تحقيق د.حسن هنداوي , دار القلم - دمشق - الطبعة الأولى , 1985م , الجزء الثاني , صـ816

[48]معجم العين ,تحقيق د. مهدي المخزومي, د. إبراهيم السامرائي ,منشورات دار الهجرة ,إيران - قم ,الجزء الأول -1405هـ , صـ 53-54

[49]الأصوات اللغويّة , ابراهيم أنيس , دار الطباعة الحديثة , الطبعة الخامسة , صـ 77 , 88

[50]سرّ صناعة الإعراب , 2\818

والعين وهو حرف حلقيّ ،فكلّما تحقّق البعد كان الحسنُ أظهرَ .كما يوحي تكرار اللام ، وهو حرفٌ ذلقيّ، بتكرار الأخطاء التي قد تقع فيها الرّعيّة ، وبالتالي تحتّم على الوالي استمرار التحلّي بالسّماحةِ والعفوِ والغفرانِ .

أسهمت مصادر الموسيقا بأنواعها كافةً من محسّنات لفظيّة ومعنويّة وإيقاع داخليّ وغيره في تجلية صورة الحاكم المسؤول في نهج البلاغة وإظهار المسؤوليات التي يضطلع بها.

خاتمة:

نخلص إلى القول : إنَّ البحث قد اختصّ بجانبٍ من جوانب المسؤوليّة ، وهو الحاكم المسؤول في خطب نهج البلاغة، وما يتّصل به من مسؤولية الخليفة متمثّلةً في الإمام عليّ . أظهر البحث عظمة مسؤولية الحاكم التي تمثّلتفي إفساح مساحةٍ كبيرةٍ من خطب النهج لتحديد مسؤولية الحاكم ؛ إذ لم يغفل صغيرةً أو كبيرةً إلا وتناولها بدءاً من بطانة الحاكم وخاصّته والعلاقة مع الرعيّة مروراً بتعيين القضاة والمسؤولين والكتّاب وعمّال الخراج والفيء ، وانتهاءً بالتركيز على دور الجيش والعلاقة مع الدول الأخرى صديقةً كانت أم عدوّةً ، ثمّ تذكير الحاكم ببناء الحكم على العدل ، وتجنّب ظلم الرعيّة وتأدية الحقوق لأصحابها لنيل رضى الله تعالى وتجنّب سخطه .

وقدّم البحث أنموذجاً لتلك الخطب تمثّل في كتاب الإمام عليٍّ لواليه على مصرَ ،فكشفت الدّراسة الجماليّة المستوى الفنّي الذي اتّسمت به خطابة ذلك العصر بشكلٍ عامٍّ وخطب الإمام عليّ بشكلٍ خاصٍّ ، وإسهام عناصر بناء الخطابة من موسيقا وإيقاعٍ داخليٍّ للمفردات والتراكيب ، وصورٍ تجمع بين الإيحاء والرّمز من جهة والتصريح والوضوح من جهةٍ أخرى . أسهمت جميعها في رسم صورةٍ متكاملةٍ واضحةٍ للمسؤول وواجباته معتمدةً عنصر الجذب والتأثير والإقناع والإفهام للمتلقّي .

المصادر :

1. القرآن الكريم

2. ابن أبي طالب ، عليّ ، نهج البلاغة ، شرح ابن أبي الحديد – تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، المركز الثقافي اللبناني ، بيروت –لبنان ، الأجزاء :20,19,18,17,16,15,14,13,11

3. ابن جنّي ، أبو الفتح عثمان ، سر صناعة الإعراب ،تح : د. حسن هنداوي ، الجزء الثاني ، الطبعة الأولى ،دار القلم،دمشق ،1985م .

4. الخطيب ، الإمام جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزويني ، التلخيص في علوم البلاغة ، ضبط وشرح د. عبد الرحمن البرقوقي ، الطبعة الأولى ،المكتبة التجارية الكبرى ، مصر، 1904م .

5. سيبويه ، الكتاب ، الجزء الأول ، تح : د. عبد السلام محمد هارون ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1977م

6. الفراهيدي ، الخليل بن أحمد ، معجم العين ، الجزء الأول ،تح : د. مهدي المخزومي ،د. إبراهيم السامرائي ،منشورات دار الهجرة ،إيران – قم ،1405هـ .

المراجع:

1. أبو النيل ، د. محمود السيد ، علم النفس الاجتماعي ،دراسات عربية وعالمية ، ،سلسلة علم النفس ، الجزء الأول ، الطبعة الرابعة ، دار النهضة العربية ،بيروت – لبنان ،1985م

2. أنيس، د. إبراهيم الأصوات اللغويّة ، الطبعة الخامسة ، ، دار وهدان للطباعة والنشر، مكتبة الأنجلو المصرية ، 1979 م .

3. الحداد ، نقولا ، علم الاجتماع ،حياة الهيئة الاجتماعية وتطورها ، ،الجزء الأول ، الطبعة الثانية ، دار الرائد العربي ، بيروت – لبنان ، 1982م

4. الحلواني ، د. محمد خير ، الواضح في النحو والصرف ، قسم الصرف ، الطبعة الثالثة، منشورات مكتبة الشاطئ الأزرق ، اللاذقية ، سورية ، حزيران 1979م .

5. علي ، د. أسعد ، علم المعاني ومقتضى الحال ، ،الجزء الثاني ،مقتضى حال المعاني في بلاغة الخبر ،الطبعة الأولى ، مطبعة الاتحاد ،دمشق، 1987 –1988 م

6. كون ، ايغور ، معجم علم الأخلاق ، ترجمة توفيق سلوم ، طبعة الاتحاد السوفياتي ، دار التقدم – موسكو، 1984م .

7. مبارك ، د. زكي ، النثر الفني في القرن الرابع ، الجزء الأول، دار الجيل، مصر .

8. ويس، د. أحمد محمد الانزياح في التراث النقدي والبلاغي ، اتحاد الكتّب العرب ، دمشق ، 2002 م .